ردمد: ISSN 2602-618X

العلماء وطلبة العلم

ودورهم في تحرير مدينة وهران 1792م

الدكتور بوخلوة حسين، جامعة ابن خلدون تيارت

Scientists and Students of Science
and their Role in the Liberation of the City of Oran in 1792 AD

Dr. Boukhaloua Hussein, Ibn Khaldoun Tiaret University
errachdi26@gmail.com

تاريخ الإرسال: 19/ 08/ 2019 تاريخ القبول: 26/ 08/ 2019 تاريخ النشر: 22/ 10/ 2019

الملخص:

حاول العثمانيون في الجزائر مرارا تحرير مدينة وهران المحتلة من قبل الإسبان و قد تمكنوا من ذلك في مناسبة واحدة لكن الاحتلال عاد إليها من جديد، ليأتي التحرير النهائي سنة 1792م كانت مدينة معسكر خلال هذه الفترة عاصمة للبايلك، بقيادة الباي محمد الكبير، كانت هذه المدينة مركزا علميا وقبلة للعلماء وطلبة العلم بما كانت تحويه من مدارس ومساجد ومشايخ، لقد قام العلماء بدور أساسي ومحوري في تحرير مدينة وهران عن طريق الحث على الجهاد والقيام به وتحضير بعض أنواع الأسلحة، كما رابطوا على جبل المايدة قرب وهران إمعانا في مراقبة العدو وحصاره، بزعامة الشيخ بوجلال ومساعده الشيخ محمد المصطفى بن زرفة، كما قام طلبة العلم بدورهم فحملوا السلاح وقاتلوا الأعداء في نحو أكثر من 2000 مقاتل.

الكلمات المفتاحية: محمد الكبير، وهران، 1792م، رباط افري، الطلبة، مصطفى بن زرفة، تحرير.

Abstract: The Ottomans in Algeria repeatedly tried to liberate Oran from the Spanish occupation, and they were able to do so on one occasion, yet the occupier came back to it, then came its final liberation in 1792. The city of Mascara, during this period, was the capital of the Baylik, led by the Bay Mohamed lkbir. The city was a scientific center for scholars and students of science with its schools, mosques and scholars who played a key and pivotal role in liberating oran city by inciting and carrying out jihad and preparing some types of weapons. They also joined mount Mayda near Oran to monitor and blockade the enemy. This was led by Sheikh Boujalal and his assistant Sheikh Mohammed al-Mustafa bin Zarfa. The students of science also took up arms and fought enemies in more than 2,000 fighters.
Key words: Mohamed lkebir; oran; 1792ad; Rebaat Ifri; students; liberation; mustapha ben Zerfa.

1- مقدمة:

لم يكتفي الصليبيون بعد احتلالهم للبلاد الإسلامية في الأندلس بذلك ، وإنما حملوا ضغينة وكرها كبيرين للإسلام وأهله، وقد أفصحوا عن تلك الضغائن على لساني كل من الملك فرناندوا والملكة إيزابيلا الكاثولكيان بعدم الاكتفاء بطرد المسلمين من الأندلس، بل يجب أن يتعدى ذلك إلى وجوب ملاحقة المسلمين في بلادهم بالمغرب الإسلامي واحتلال أراضيهم والقضاء نهائيا على الإسلام والمسلمين، ولم يتأخر هؤلاء في تنفيذ المشروع، بل بدأوا في تطبيقه و شرعوا في احتلال المدن الساحلية الإسلامية وراحوا يغيرون على المناطق الموجودة في الداخل.

ولا يخفى الطابع الديني الصليبي الذي اكتست به تلك الحملات، ولعل ذلك يترجمه ما فعله هؤلاء المحتلين بعدما كانوا يقومون باحتلال المدن، إذ كانوا يعمدون إلى هدم المساجد أو تحويلها إلى كنائس، وأبشع من ذلك إلى قتل المسلمين فيها، وذلك ما حدث بعد أن احتل الإسبان لمدينة وهران سنة 915هـ/ 1509 م، وكانوا قد احتلوا

قبلها المرسى الكبير سنة 911هـ/ 1505م على يد دييغو ديكوردوبا [1]، إذ يشير الباحثون إلى إبادة آلاف المسلمين في هذه المدينة.

ورغم استماتة المسلمين في الدفاع عن مدينتهم إلا أنهم فشلوا في حمايتها، فالسلطة الزيانية كانت ضعيفة أنذاك، بل إن سلطتها لم تكن لتشمل مدينة وهران ، إذ كانت تنزع إلى الاستقلال وتعين مجلس محلي ينظر في شؤونها. ولما خضعت الجزائر للفتح العثماني ، لم يتمكن هؤلاء من استرجاع المدينة في أول أمرهم إلى غاية تمكن الداي محمد باكداش الذي تولى الحكم سنة 1119ه/ 1707م من استرجاع مدينة وهران في نفس هذه السنة على يد باي بايلك الغرب مصطفى بوشلاغم، ثم استرجاع المرسى الكبير سنة 1120هـ/ 1708م. [2]

ولعل ما يلفت الانتباه في هذا التحرير الأول الالتفاف الكبير بين السلطة الحاكمة ومختلف فئات الشعب واتفاقهم على ضرورة بذل أقصى الجهود من أجل تحرير المدينة، خاصة من فئتي العلماء وطلبة العلم وفي ذلك يقول أحمد توفيق المدني: فإن الناس جاءوا إليه من كل فج عميق وانسلوا إليه من كل قبيل وفريق زيادة على من عينه السلطان، لذلك من عساكره إن طلبة العلم وحملة القرآن كانوا أشد الناس مسارعة لإجابة دعوة السلطان إلى هذا الجهاد المبارك وكانوا بمحلة مستقلة عن غيرها وكانت شوكتهم على الكفار أقطع من الرماح ومرماهم أنفذ من السفاح وسور جندهم يشد بعضه بعضا ، وكل واحد منهم يرى موته قبل أخيه فرضا وكان عددهم

1- الوزان الفاسي الحسن بن محمد: وصف إفريقيا.ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1983م، ج2، ص31.

2- توفيق المدني أحمد: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792م. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص ص 457-464.

تارة يزيد على الألف وينخفض عنه إلى السبعمائة ، وكانت لهم منهم رؤساء يرجع أمرهم إليهم، ومنهم الفقيه والعالم أبو عبد الله محمد الموفق التلمساني نسبا ، المالكي مذهبا. [1]

إلا أنه وفي سنة 1145 ه /1732م كلف الملك الإسباني فليب الخامس الكونت دي مونتيمار بغزو وهران من جديد بهدف احتلالها ، وهذا ما حدث بالفعل إذ اضطر الباي بوشلاغم إلى إخلاء المدينة ودخولها من طرف الإسبان، ورغم ذلك فقد ظلت وهران والمرسى الكبير تحت حصار وتضييق ومعارك تكاد تكون مستمرة متوالية ما يزيد عن الخمسين سنة، لكن الباي مصطفى بوشلاغم فارق الحياة دون أن يحقق أمنيته في تحرير وهران نهائيا، وخلفه بعد حين على كرسي بايلك الغرب الباي محمد بن عثمان الكردي ويدعوه العرب محمد الأكحل لشدة سمرته، وقد كان قد أبلى بلاء حسنا في الدفاع عن الجزائر إلى جانب بقية القوى الإسلامية ، أيام حملة أوريلي الخائبة. [2] لقد تمكن هذا الباي من توفير الظروف اللازمة والجو المناسب ، من خلال اتخاذ مدينة معسكر عاصمة له، وتقريب العلماء حوله وطلبة العلم وحثهم على الجهاد.

2- التعريف بالباي محمد الكبير:

هو الباي محمد الكبير أبو عثمان وأبو الفتوحات، ابن جارية اسمها زائدة، أهداها لأبيه المولى إسماعيل سلطان المغرب الأقصى لمودة كانت بينهما، أما أبوه فهو أبو إسحاق الحاج عثمان بن إبراهيم الكردي كان خليفة على مليانة ، ثم ارتقى

1- توفيق المدني، مرجع سابق، صص 455-456.
2- المدني مرجع نفسه، صص 481-523.

فأصبح بايا على تيطري وأحوازها، وكان بايت يطري محترما لدى الأتراك لأن هذه الناحية أول منطقة خضعت للأتراك بعد الجزائ، وقد توفي عثمان بمدينة معسكر ودفن بها سنة 1170ه. [1]

لقد كان أبوه عثمان الكردي مرتبطا بعرى الصداقة مع إبراهيم المليانى وكان هذا الأخير قائدا على مليانة ولما توفي الباي عثمان تكفل إبراهيم بعائلته ، وزوج ابنته لمحمد بن عثمان، وحين انتقل إبراهيم بايا على الجهة الغربية أخذ صهره معه وعينه قائدا على فليتة سنة 1178 ه، ثم عينه خليفة له سنة 1182 ه وبعد مدة قليلة أشركه في جميع حكومته ، وكلفه بإدارة الناحية الشرقية من بايلك الغرب، كما لعب محمد الكبير دورا بارزا في التصدي للحملة الصليبية الإسبانية بقيادة أوريلي، وبعد وفاة الباي إبراهيم خلفه الباي خليل، وفي سنة 1192 ه ثارت الطائفة الدرقاوية بمنطقة

1- بن هطال التلمساني أحمد: رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري. تحقيق محمد بن عبد الكريم، القاهرة، دار عالم الكتب، ط1، 1969، ص 15. وينظر أيضا محمد بن أحمد أبي راس الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار.تحقيق محمد غالم، دون معلومات حول الطبع، ج2، ص 121. وينظر أيضا :محمد أبي راس الجزائري: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته. تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990م، ص 76. وأيضا أحمد بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني. تحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص133.وأيضا: الأغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى نهاية القرن التاسع عشر. تحقيق يحي بوعزيز، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج1، ص 289. وأيضا محمد بن يوسف الزياني :دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران. تحقيق المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013م، صص 206-261.

عين الحوت قرب تيموشنت لكن الباي خليل وافاه الأجل في أثناء خروجه للقضاء على هذه الثورة فعين محمد الكبير خلفا له على رأس البايلك. [1]

وبمجرد جلوسه على كرسي الحكم وتعيينه بايا شرع في إصلاح شؤون الرعية والسهر على مصالح العباد وتنظيم البلاد، فراح ينشر الأمن ويؤلف بين قلوب الناس وبادر بإخضاع القبائل المتمردة على الحكم التركي، مثل قبيلة أولاد طلحة والحشم وفليتة وحميان والعمور وجميع قبائل بني راشد، وبعض القبائل على الحدود المغربية التي كانت تحترف اللصوصية وقطع الطريق على المسافرين، فانتصر على الجميع وأخضعهم للحكم التركي وملأ خزينته بما أدوا إليه من ضرائب، كما أدخل بعضهم في المخزن. [2]

ولعل أهم حملة قام بها تلك الحملة التي قادته إلى الجنوب الصحراوي الجزائري فجهز لها جيشا عرمرما ونزح به من معسكر مارا بجبل عمر والبيضاء وآفلو والطويلة إلى أن وصل إلى مدينة الأغواط فانقاد له جميع القبائل التي بضواحيها بما فيها مزاب، واعترفوا بدولة الأتراك في القطر الجزائري، ورضوا أن يؤدوا لها الضرائب السنوية، وكان ذلك سنة 1199 ه. [3]

اشتهر الباي محمد بن عثمان بجديته وصرامته وحبه للعلم والعلماء، وقد ذاع صيته حتى بين الكتاب والمؤرخين الأوربيين في بعده الروحي والإنساني وورعه وتقواه وعقيدته و وأخلاقه الحميدة، حيث شهدوا له بحسن معاملة العبيد الأوربيين الذين كانوا يمارسون بقصره مختلف الأعمال، فقد ذكره عالم النبات دي فونتان، بأنه

1- بن هطال، مصدر سابق، ص ص 16-17.
2- بن هطال، مصدر سابق ، ص17.
3- المازري، مصدر سابق، ص 290.

كان كريما معهم ويزودهم بما يحتاجون من أغذية، وقد جعل لهم راتبا مقابل ما يؤدونه من أعمال لديه ويعاملهم برأفة تنم عن ورع وتقوى كبيرين لدى هذا الباي، إضافة إلى تواضعه الكبير مما جعله يتمتع بشعبية كبيرة بين سكان مدينة معسكر. [1]

إن احتلال مدينة وهران من قبل الإسبان ، وشهود تلمسان تدهورا اجتماعيا وثقافيا فقد هاجرت منها عوائل غنية، وأخرى علمية الى المغرب الأقصى فرارا من الاسبان الذين تدخلوا في شؤون الزيانيين، ثم فرارا من العثمانيين عند استيلائهم بالقوة على تلمسان، وبذلك فقدت تلمسان عددا من سكانها دوي النفوذ الاجتماعي والتأثير العلمي، ومن تلك العوائل عائلتي المقري والونشريسي، ولم تستعد تلمسان مكانتها العلمية التي كانت تتمتع بها خلال القرنين الثامن والتاسع _14-15 م، فقد ظلت خلال العهد العثماني مدينة مهزومة تعاني من التدمر والفقر، أما الزعامة السياسية فقد أخذتها مازوونة ومستغانم ثم معسكر. [2]

لقد كانت للباي محمد الكبير اليد البيضاء في الاهتمام بمدينة معسكر، خاصة من الناحية الثقافية وهو ما سيؤدي إلى انتشار العلم وكثرة العلماء وطلبة العلم، وهو ما سيؤدي أيضا إلى استنارة العقول، ولزوم جماعة المسلمين، واحترام العلماء، وهو ما سيسهل أي عملية للتعبئة والدعوة إلى الجهاد ضد المحتل الصليبي الاسباني، وهو ما حدث بالفعل، ولم تتوقف عملية المقاومة والجهاد بعد تحرير مدينة وهران إذ سرعان

1- ابن العيفاوي علي: البعد الروحي في فتح مدينة وهران سنة 1792م. الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، الجزائر، العددان 5، 6، جوان 2014-2015، ص 261.
2- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1989م، ج1، ص ص 176-177.

ما هب الجزائريون يلبون نادي الجهاد تحت لواء الأمير عبد القادر ضد المحتل الفرنساوي الجديد.

3- العلم والعلماء في الراشدية:

ولا بأس أن نستعرض الواقع الثقافي والفكري في الراشدية في هذا العصر، عصر محمد الكبير محرر مدينة وهران، فبعد مبايعة هذا الأخير على رأس البايلك شرع في مشروعه الإصلاحي ومن ذلك مساجد الجمعة، فقد زاد في جامع السوق ثم نقض الجامع العتيق أو الجامع الأعظم وأعاد بناءه وزاد فيه أكثره وأجرى إليه الماء ثم شرع في بناء مسجده العظيم- وهو مسجد سيدي حسان أو جامع المبايعة- الذي لم يبن أمير مثله إتقانا وحسنا وحبس عليه خزانة كتب هي في البيت الذي بناه لأجلها خارج بعض زواياه بابها فيه وحبس عليه أملاكا عظيمة وقد فرغ منه سنة 1196 ه .[1] ورتب له خطيبا وإماما وأربع مدرسين وغيرهم من الموظفين وبنى بمعسكر قناطر وصورا مشهورا وطبانتين للمدافع.[2]

كما أسس المدرسة المحمدية في معسكر مضافة إلى المسجد وكان تمام بناء هذه المدرسة سنة1196 ه وقد وقد عين الباي أعظم عالم، مديرا لها وهو الشيخ محمد بن عبد الله الجلالي، الذي اشتهر بتنظيم رباط وهران ورئاسة ذلك الرباط الذي استعان به الباي محمد بن عثمان عل طرد الإسبان من وهران.[3]

1- ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، ص ص 135-136.

2- المصدر نفسه، ص ص 135-141.

3- المهدي بوعبدلي: الحياة الثقافية في الجزائر، ضمن الأعمال الكاملة للمهدي بوعبدلي، الجزائر، عالم نشر المعرفة، ط1، 2013 م ، ص ص 39-40.

ومن أعظم مآثره أنه رتب المدرسين في الجوامع بوظائف يأخذونها من الأحباس، بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزن بشيء، إلا من كان متوليا لخطة أو مستعملا في خدمة فاتسعت بذلك حال العلماء، وانشرحت الصدور للقراءة، وشرهت لها النفوس ، وكثر طلبة العلم، وتشوف كل أحد للتدريس، واشتد الحرص على العلم بعد أن كاد يترك اشتغالا بالتجارة لقلة جدواه. [1]

وكان الباي محمد الكبير رجل تقيا ورعا مقربا للعلماء وطلبة العلم، فقد جاءه أديب قرومة السيد أحمد بن علال منقطع الدار مصروم الحبال، فأجازه بمائة محبوب، ثم وافاه وهو ذاهب إلى الجزائر فأجازه وانعم عليه أيضا، وأتاه بعض طلبة المغرب سائلا في حالة رثة فكساه وأعطاه مائة مثقال وبغلة فارهة، ثم أتاه آخر وهو مشغول بتجهيز عرس لأولاده فأعطاه مائة ريال ومثل ذلك من إثابته من لا يعرف لا يحصر، ومن ذلك صدقاته الدائمة والخاصة فانه كان يعم فيها أهل الوظائف كالخطباء والأئمة والمؤذنين والمؤدبين والمدرسين في كل بلد لرعيته نفسه يأخذ الواحد منهم بين الثلاثة دنانير الى الدينار. [2]

لقد كان محبا للعلم إذ أنه أمر بعض الطلبة بجمع فتاوى العلماء في جوائز الملوك فجمع له من ذلك رسالة أثابه عليها بسبعين دينار ، وجمع له بين كلام شارح السلوانة في البازي ، وصاحب التذكرة في أقل من كراسة، فأجازه بما يليق بمنصبه، ثم أمر باختصار الأغاني فاختصرته له فأوجزته في نحو ثمانين كراسة فأثابني بمائة سلطاني، ثم أمرني أيضا بجمع طب القاموس، فصممته وزدت عليه من كلام الأطباء

1- ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، ص143.
2- المصدر نفسه، ص 152.

ما صار به تأليفا بديعا حسن الترتيب، فأثابني عليه بخمسين سلطاني، كنت ألفت كتابا باسمه سميته: عقود المحاسن ، فلم تسمح الأيام بإيصاله إليه، وفي أيامه شرحت العقيقة شرحا ضخما عجيبا. [1]

وقد أمر السيد مصطفى بن عبد الله بتقييد الحوادث الواقعة فيما يتعلق بالجهاد وما يصل الطلبة من رزق وغيره فقيد قليلا ثم اشتغل عنه حتى تم الفتح، وأكمله بتلقي الأخبار من أفواه الرواة بنفسه وكان يحرص على شراء الكتب بالثمن البالغ ويستكثر منها وينسخ مل لم تطب نفس صاحبها ببيعه، وكثيرا ما يأمر بقراءتها في مجلس حكمه فإذا انفض عنه الناس انشغل بمراجعتها بنفسه فلذلك تجده مستحضرا لأكثر معانيها فلا تمر قضية ولا حديث مشهور ولا شيء من أخبار العرب وأيامها، وسير ملوكها وأنباء ملوكها وأنباء حروبها وأمثالها وحكمها إلا وله خبره. [2]

كما شهد الوطن الراشدي بيوت من الأشراف الفاطميون منهم الحسينيون ومنهم الحسنيون إدريسيون وسليمانيون، وفيه من الأولياء مالا يعلم جنود ربك إلا هو حتى قيل كل دومة بوالي أو كل ضلفة، وقد كثرت الرحلة إلى غريس لطلب العلم من القرن العاشر الى القرن الثاني عشر لكثرة الزوايا كزاوية سيدي محمد بن يحي السليماني، وزاوية عبد الله بن عبد الرزاق الإدريسي، وزاوية محمد المشرفي الإدريسي، شيخ مصطفى الرماصي وزاوية عبد القادر بن مختار [3] فالأشراف وكانوا

1- المصدر نفسه. ص155.

2 – الراشدي، مصدر سابق، ص 155.

3- بلهاشمي بن بكار: حاشية رياض النزهة على منظومة نسمات رياح الجنة، في فضائل أهل البيت وأولياء الله ، وأذكار الكتاب والسنة ضمن كتاب مجموع النسب واحسب والفضائل والتاريخ والأدب. تلمسان، مطبعة ابن خلدون، ط1، ، 1961 ص 35.

يدعون بني راشد، لا يعرفون إلا بهذا الاسم نسبة الى راشد ابن المرشد فتى إدريس الأول وهو الأصل الذي يجتمع فيه أعيان أشراف غريس كما في غرر التنوير في ذكر آل النبي البشير، وفي غوثية الشيخ عيسى بن موسى ما يرشد لهذا حيث يقول، وفي راشد جمع وهم بنو راشد أي وفي وطن راشد والله أعلم. [1]

وكان لأعيان هؤلاء الأشراف مزيد اعتناء بالعلم وكثرة قيام بأسباب حفظه، فكان الواحد مهم يؤسس زاوية لطلب العلم ويوظف بها أجلة المدرسين فيقصد من طلبة العلم من الآفاق على نفقة صاحب الزاوية لذلك كثرت الرحلة في طلب العلم إلى غريس ما بين القرن العاشر والحدي عشر والثاني عشر، وقد اقتفى اثرهم من وفقه الله للسعادة من عرب وبربر في تأسيس الزوايا للطلب العلم وانتشر العلم بوطن راشد حتى صار الوطن الراشدي كعبة العلماء وقبلة طلبة العلم النجباء الدين حملوا راية العلم ثلاثة قرون ولا كلت منهم كواهل ولا قرون. [2]

معهد القيطنة: وصف أبو راس في رحلته معهد القيطنة في عهد مؤسسه الشيخ المشرفي والشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي المشهور بإمام الراشدية المتوفي 1192 ه. [3] وقد ذكر الأمير في مذكراته أن مسجد القيطنة أسس في أواخر القرن الثاني عشر وأدخل عليه التغيير والتجديد، ومما لا شك فيه أن الباي محمد بن عثمان الفاتح الذي كان من تلامذة مصطفى بن المختار، جدد وبنى عدة مساجد ويكون هذا التاريخ

1- الهاشمي بن بكار، القول الأعم في بيان قبائل الحشم. تلمسان، المطبعة الخلدونية، ط1، 1961م، ص ص 330-331.

2- محمد الأعرج الغريسي الفاسي: شرخ منظومة بغية الطالب لعيسى بن موسى الغريسي التيجاني. ضمن كتاب مجموع النسب والحسب للهاشمي بن بكار، ص ص 373- 381.

3- أبو راس، فتح الإله ومنته ص24.

1206 ه تاريخ تجديد لا تاريخ بناء، وقد توفي المصطفى بن مختار سنة 1212 ه ببرقة، بعد عودته من الحج .ولم تكن القيطنة تكتفي بالقرآن، ففي مرثية بعد وفاة محي الدين سنة 1249 ه تبين أنها كانت معهدا لمختلف العلوم الشرعية [1]:

ترى كتب ابن الحاجب وخليلنا وألفية بن مالك مـــع عـنية
وسعد وسلم وجمع جوامع وتفسير مـــــا يتلى كتاب وسنة
يقولون لنا من بكشف رموزنا وحل غريب اللفظ عند القراءة
ومعرفة الصحيح من ضده إذا تعارضت الآثار من غير مـيزة
هلموا إلى دار العلوم لتكثروا تأسفكم على إمام الأئـــــــمة [2]

لقد أصبحت للراشدية أو معسكر مكانة اعترف بها علماء بلاد المغرب العربي حيث كانت منبع علم التوحيد، ومنهم أحمد المقري التلمساني، الذي قال في حاشيته على صغرى الإمام السنوسي، إفادة المغرم المغراء بتكميل شرح الصغرى، أن سنده في علم التوحيد، يتصل بعلماء الراشدية العارفين بهذا الشأن، والشيخ علي السكتاني، قاضي مراكش الذي قال في حاشيته على الصغرى أن سنده في هذا الفن يتصل بعلماء الراشدية، ويصف الراشدية بأنها منبع علم التوحيد، أما في المشرق فحاشية مصطفى الرماصي على التتائي، كان يعتمد عليها الشيخ الدردير في شرحه على مختصر خليل، وأن الشيخ البناني الفاسي كان يعتمد في شرحه على مختصر خليل على حاشية الرماصي على التتائي. [3]

1- ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ، العهد العثماني. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1984م، ص 228.
2- المرجع نفسه ، ص 229.
3- المرجع نفسه، ص ص170-171

وكان الرماصي قد ألف رسالة أحصى فيها أخطاء الخرشي في شرحه على خليل، وقد أجاب الرماصي، وهو صاحب الحاشية على التتائي، أحد سائليه ، متحدثا عن الخرشي في شرحه لخليل:أراك أيها السائل تحتفل بكلام عبد الباقي الزرقاني وذلك بمعزل عن التحقيق، لأن شرحه وشرح الخرشي، لا نكترث بهما في بلادنا الراشدية، لعدم تحقيقهما، وعمدتهما كلام علي الأجهوري وهو كثير الخطأ.[1] وبالتالي ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن الحياة العلمية القائمة على العلوم الشرعية كانت رائجة في بايلك الغرب سواء في عهد الباي محمد الكبير أو قبله، ونشير هنا إلى أن الباي تمكن من فرض طاعته على مختلف جهات البايلك، ولم يتبقى له إلا أن يولي وجهته نحو وهران، البلد الذي يدنسه الكفرة أعداء الدين والوطن، والواجب التعبئة والتحضير من أجل إعلان الجهاد لإرجاعه إلى حضن الوطن.

4-الجهاد واجب مقدس :

اسم الجهاد مأخوذ من الجهد وهو التعب، فمعنى الجهاد في سبيل الله المبالغة في إتعاب الأنفس في ذات الله وإعلاء كلمته التي جعلها الله طريقا إلى الجنة وسبيلا إليها. قال الله عز وجل: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ}.[2]

شرع الله سبحانه وتعالى الجهاد وجعله واجبا على المسلمين، وقد أجمع علماء الإسلام أنه واجب كفائي ، إذا قام به البعض سقط عن البعض الآخر، هذا في جهاد الطلب، أما جهاد الدفع وهو الذي يكون ضد الأعداء الذين يغزون البلاد الإسلامية

1- ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، مصدر سابق، ص 169.

2- ابن رشد القرطبي أبو الوليد محمد بن أحمد، المقدمات الممهدات، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1408 ه، 1988م، ج1، ص341. والآية رقم 78 من سورة الحج.

فالجهاد في حقهم واجب قدر الاستطاعة، وإن لم يكونوا مستطيعين، فعلى المسلمين كافة مساعدتهم من أجل طرد المحتل الأجنبي للبلاد الإسلامية .

والجهاد فريضة يحمله بعض الناس عن بعض وأحب إلينا أن لا يقاتل العدو حتى يدعوا إلى دين الله إلا أن يعاجلونا فإما أن يسلموا أو يؤدوا الجزية وإلا قوتلوا وإنما تقبل منهم الجزية إذا كانوا حيث تنالهم أحكامنا فأما إن بعدوا منا فلا تقبل منهم الجزية إلا أن يرتحلوا إلى بلادنا وإلا قوتلوا، والفرار من العدو من الكبائر إذا كانوا مثلي عدد المسلمين. [1]

والرباط شعبة من شعب الجهاد، وهو ملازمة الثغور لحراسة من بها من المسلمين، وهو مأخوذ من الربط لأنه إذا لازم الثغر فكأنه قد ربط نفسه به. قال الله عز وجل: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}. [2] والأجر فيه على قدر الخوف من ذلك الثغر وحاجة أهله إلى حراستهم من العدو، وقد روي أن عبد الله بن عمر قال: فرض الجهاد لسفك دماء المشركين، والرباط لحقن دماء المسلمين فحقن دماء المسلمين أحب إلي من سفك دماء المشركين. [3]

وقد وردت العديد من الآيات القرآنية التي تحث المسلمين على الجهاد والمرابطة، وتعدهم نظير ذلك بالجزاء الكبير نذكر منها قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}. [4] وقوله تعالى:{لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ

1- ابن أبي زيد القيرواني عبد الله ، المالكي: متن الرسالة. بيروت، دار الفكر، ص 83.
2- الأنفال 60.
3- ابن رشد، مصدر سابق ، ج1، ص 364.
4- العنكبوت 69.

آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}. [1] وقوله أيضا: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}. [2] وقوله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}. [3]

وقوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}. [4] وقال الله عز وجل في كتابه العزيز: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}. [5] و قَال النبي صلى الله عليه وسلم: (رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فيها، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فيها. [6]

5- الرؤى الصالحة ودورها في تثبيت المسلمين ضد الكفرة:

1- الدخان 88.

2- التوبة 73.

3- الحج، 39، 40.

4- التوبة 111.

5- آل عمران 200.

6- ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف: شرح صحيح البخاري. تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، السعودية، الرياض، مكتبة الرشد ، ط2 ، 1423هـ ، 2003م، ج5، ص86.

إن الرؤى الصالحة الحسنة أو الصادقة المنتظمة الواقعة على شروطها الصحيحة وهي: ما فيه بشارة أو تنبيه على غفلة منحة يعطيها رب العالمين لعبده الصالحين، وقد ورد فيها الدليل القاطع من السنة النبوية منها قوله صلى الله عليه وسلم: (ليس يبقى من بعد النُّبُوَّةِ إلاَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ'). [1] ومنه قوله صلى الله عليه وسلم:(الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ. أَوْ تُرَى لَهُ. جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ). [2]

وقد ذكر ابن سحنون الراشدي كثيرا منها فبعض الطلبة المضنون بهم الخير رأى قبل الطاعون بكثير، كأنه بمكان أنيق فيه غرف، اثنتان مغلقتان وواحدة مغلوقة ، فسأل رجلا حسن اللون كان بقربها لمن هي ؟ فقال إنها للباي محمد، أما المفتوحتان فبسبب إطعام الفقراء يوم المسغبة والأخرى ببناء المدرسة والمسجد والأخرى لا تفتح له حتى يفتح وهران إن شاء الله. [3]

ومنها أن شيخ محمد بن عبد الله الجلالي رأى قبل زمن الطاعون كأنه يدور بالأبراج خائفا من المدافع فقيل له أن وهران فتحت ، ورأى المسلمون قد عمروها، فعزم على سكناها وسماها مدينة مغراوة محل البيع والشراء، وكانت والدته وهي من الصادقات رأت كأنها فتحت، وسكنها بعض أولادها ، فكانت تعدهم بذلك أيام صباهم، ولقيه وهو ذاهب بالطلبة إلى إيفري رجل من من أهل الصلاح ، فقال له إني

1- مالك بن أنس: الموطأ.تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، الإمارات، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، 1425 ه، 2004م، ج5، ص 1393.
2- المصدر نفسه، ج5، ص 1394.
3- ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق ص214.

رأيتك في مدينة خالية فقلت لك: ما أتى بك ههنا ، فقلت لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اسبقني وأنا ألحقك. [1]

ورأى بعض الطلبة كأن العلماء اجتمعوا للنظر في أمر امرأة لتتزوج فتنازعوا في ذلك والشيخ يقول بتزويجها فقام رجل أزرق قصير فقال إنها تتزوج ولكن حتى تعتد فأنفقوا عليها إلى أن تنقضي عدتها، فأخذ الشيخ شيئا من الخضر وذهب به إليها لذلك، ورأى آخر كأن العلماء اجتمعوا للمذاكرة، فقال السيد الطاهر القاضي رحمه الله تعالى: أبودية والشيخ الفزازي كافران، فقل له بعض الحاضرين ووهران تفتح وأنت تموت بها ، فقال نعم عندي، ووضع يده على الموضع الذي جرح فيه. [2]

6- استعداد الباي محمد الكبير للخروج وتأسيسه لرباط إيفري:

لقد كان الباي يشجع رعيته على الارتحال قرب أسوار الكفرة، ووعد من يفعل، إسقاط المطالب المخزنية عنه وبقي محترما، فاجتمعت فيه امة من الناس من كل ناحية بأموالهم وأولادهم، فقام لهم بكفايتهم من العدة والخيل وأباح لهم الحرث في تلك الجهة فكانوا يحرثون إلى قرب البلدة الوهرانية ويبعث لهم في كل شتاء وصيف ما يعمهم به من وافر سبيه مما كانت الأمراء لا تسمح قبله بعشره، مرة في العمر فضلا عن مرتين في السنة، ويوجه لهم مع ذلك من يقسمه بينهم من العلماء [3]

ولقد ذهبت –يقصد الكاتب نفسه الراشدي ابن سحنون- مرة لقسمه عليه فقلت لهم بعد أن أخذ كل واحد حظه وفرحه لما نابه، إخواني أكثروا من الدعاء لهذا الأمير الكريم الذي أحلكم أعلى منازل التكريم.فهو يؤثركم على أولاده فأقروا عينه

1- المصدر نفسه، ص215.
2- ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص215.
3- المصدر نفسه، ص 205.

بمزاحمة العدو في بلاده وجدوا كل الجد في قتاله وجلاده فتغلبكم على العدو من أكبر آماله ... فرفعوا أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه، ولعمري لقد بلغوا غرضه في التضييق على الكفرة حتى منعوهم من إدامة الخروج وانقطعت غارة المغاطيس بعد أن كانوا يغزون البلاد. [1]

جهز الباي محمد بن عثمان جيشا قوامه خمسون ألف مقاتل بقيادته، وكان معه في القيادة ابنه عثمان وصهره محمد بن إبراهيم وكان في الجيش أهل تلمسان وأحوازها وقبائل من العرب كفليتة وغيرهم وأهل مازونة ومستغانم والقلعة وأعراب الشرق. [2]

كما قام بترتيب المرابطين على جبل المايدة المطل على وهران من الجهة الشرقية وعلى مرساها من الناحية الغربية وقد عين على رئاسته العالم المقدام الهمام البطل أبو عبد الله السيد محمد بن الموفق بن محمد بن عبد الرحمن المشهور بأبي جلال من علماء وقته، رحل إلى حضرة فاس فالتقى بعلمائها الأكابر واستفاد منهم، وبعد عودته إلى موطنه سافر إلى الحجاز فالتقى بعلماء الأمصار وجالسهم وباحثهم في غوامض المسائل ثم رجع وقد أدى الفريضة، وباشر التدريس ويصف ابن سحنون الراشدي دروسه بأنها تريح الأرواح والأجساد، واعتبره من أكابر شيوخه الذين انتجع رياض دروسهم، وكان أبو جلال ممن أجاز أحمد بن سحنون الراشدي عدة علوم ذكرها كصحيح البخاري وكبرى السنوسي وجمع الجوامع ومؤلفات الأخضري وألفية بن مالك ونخبة بن حجر وغيرها وكانت هذه الإجازة في سنة 1203 ه . [3]

1- ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 206.
2- نفسه، صص 227-228.
3- نفسه، صص 236، 238.

وعمل الباي على توجيه الطلبة إلى هذا الرباط من أجل حمايته فدعاهم إلى ذلك ورغبهم في وافر العطاء ومنع الناس من التدريس في المدن وأن لا يكون تدريس إلى في ذلك الجبل، فانتدب لذلك جماعة منهم، ووفر لهم ما يحتاجونه من عدة كالبارود والرصاص وما يكفي جميعهم من الأطعمة وغيرها مما يحتاجون إليه، حتى الجلود لخصف نعالهم وما يقوم بهم من الدراهم فيما عسى أن يحتاجوه وكان برفقته القاضي الطاهر بن حوا [1]

ومن العلماء الذين التحقوا برباط إفري العالم العلامة محمد المصطفى بن عبد الله بن زرفة الدحاوي، كان كاتبا لدى الباي محمد بن عثمان، ثم أصبح مساعدا لرئيس الرباط خلال الحصار الثاني عليها عام 1206 ه _1791-1792 م، وقد كالفه الباي بتسجيل حوادث الفتح كلها، فسجلها وجمعها في كتاب أسماه :الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، وقد شارك أيضا في الهجوم الشامل على مدينة وهران، وبعد تحرير وهران عين قاضيا عليها إلى أن توفي بالطاعون عام 1215ه-1800-1801م. [2]

ثم استدعى الباي، محمد بن علي الشارف المازوني وكان مطاعا عند الطلبة مهابا، قدم هو وولده الشيخ هني وأخوه السيد محمد في نحو 200 طالب فدفع لهم العدة وآلاتها وألحقهم بإخوانهم، فكثر عددهم وتواصل مددهم [3]، وكان

1- ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 24.

2- الأغا بن عودة المازري، طلوع سعد السعود، ج1، ص 63. وأيضا :بوعزيز يحي: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة. بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1995م، ج2، ص 233. وينظر أيضا، فتح الإله ومنته، صص 72-73.

3- ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 242.

الشيخ المازوني يربوا عن الثمانين عاما التحق بالرباط ماشيا متوجها من مازونة إلى معسكر فوهران، ورفض الركوب على الدابة الوحيدة التي كانت بحوزتهم وتركها للمرضى والعاجزين عن المشي. [1]

وقد كان الأمير قد جهز نحو ستة من الطلبة وألبسهم لباسا جيدا ودفع لهم عدة رفيعة ودراهمم ووجههم يسيرون في البلاد القريبة يجمعون الطلبة ويرغبونهم، فلم تمضي إلا أيام قلائل حتى قدموا بنحو 400 طالب، فبعث لهم بالأسلحة وكل ما يحتاجونه فلما كثروا وعجز الطباخون عن القيام بجميعهم ظهر له أن يدونهم خمسة وعشرون، خمسة وعشرون في الديوان ويدفع لكل ديوان ما يكفيهم من الطعام والدراهم، وبنى لهم ثلاث أرحاء ماء بنهر مسرغين بينهم وبينه نحو ثلاث أميال لجهة الغرب كل هذا وهم يتزايدون حتى أنهم قسموا الرزق أول رجب على نحو 60 ديوان، ثم بلغ عددهم 90 ديوان وفي آخره ما يزيد عن المائة ديوان وتكلف الباي بمؤنهم وأسلحتهم. [2]

وبعد استقرار الطلبة في رباط الجبل اشتدت شوكتهم على النصارى، وعظمت فيهم نكايتهم، وتكالبوا على قتالهم حتى ضاق عليهم حجرهم، وكثر كربهم وحرجهم، وودوا لو أنهم هاموا في الأفق الفياح، أو صاروا أوراقا تلعب بها أيدي الرياح، وسبب تلاقيهم أول يوم أن الطلبة ظفروا ببعض النصارى هرب من بلدهم فأخبرهم أنه خرج معه اثنان فتفرقوا في طلبهما، فالتقوا بجنود الكفرة خرجوا عن حماهم فلم يمهلوهم وتقاتلوا بقية نهارهم حتى حجروهم إلى قرب أسوارهم، و قتلوا

1 المهدي البوعبدلي: الحياة الثقافية في الجزائر، ضمن الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، جمع وإعداد عبد الرحمن دويب، الجزائر، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، المجلد الثالث، ص 40.
2- ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، صص 242-243.

منهم نحو الستة، و جرحوا اثني عشر، ونفد الرصاص والبارود على الطلبة، وفيهم من رمى نحو الأربعين سهما، فشرعوا في الانسلال و أهوى محكم أمرهم للانحلال، واضطروا إلى الرمي بالحجارة، فلما علم الكفرة بذلك تكالبوا عليهم، وجدوا في قتالهم فقتلوا منهم ثلاثة، أحدهم حامل الراية، فأخبر به، قاضي المعسكر السيد الطاهر بن حوا فرجع إليه، فلما توجه نحو العدو وسدد مكحلته ليرمي بها أصيب في ذراعه الأيمن خرجت من منتهى عضده، ثم دخلت جوفه وكانت إصابته على الطلبة من البلاء العظيم ليستشهد بعد يومين متأثرا بجراحه. [1]

ورغم ذلك فقد واصل الطلبة مهامهم في مراقبة العدو الصليبي وحلفائه من المغاطيس ومنعهم من الابتعاد عن أسوار مدينة وهران، وأظهروا في ذلك شجاعة منقطعة النظير، واستشهد منهم العدد الكبير، فكانوا كأسود الغاب وحفظ الله ظاهر عليهم ولطفه مكتنف بهم وقد بلغ من شجاعتهم أن أحدهم عمد إلى قدر بونبة وفتيلها يشتعل فبال عليها حتى أطفأها، وأخرج ما فيها من البارود، وآخر سقطت قربه فرمى عليها برنسه وركب فوقها وهي تدور به، فقال لرفيقه، ويلك ثقلني حتى لا تطير بي فركب فوقه وما فارقها حتى طفئت، ولقد رأيناهم تمر بهم في الهواء فيتبعونها حتى تسقط، فتارة تفترق في وجوههم، فيحفظهم الله منها، وتارة يعالجونها حتى يطفئوها ويحملونها للأمير فيقبضون ثمنها. [2]

وقد أيدهم الله بالكرامات من عنده حتى أن البعض يصاب بالرصاص مرتين والثلاث لا يخدشه، ويأخذه فيرمي به العدو، وقد كمن لهم الكفرة عدة مرات

1- ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص245.
2- المصدر نفسه، صص 247-248.

ونصبوا لهم الخدائع فلم ينالوا منهم ولا قلامة ظفر، ويذهب الواحد منهم والاثنين إلى مواطن القتال قرب البلد فيضل هناك يلتقط المتساقط على الأرض ويراه الكفار فلا يجسرون على الخروج إليه خوفا من أن يكون خلفه كمين فلله الحمد على جميل ستره، وخفي لطفه، واشتد ذعر النصارى من الطلبة، حتى إنهم كانوا في أيام الصلح الواقع عقب الجهاد، إذا رأوا أحدا من الطلبة فروا منه، وقالوا تنح عنا فإن الطلبة لا أمان لهم، وما لهم قصد إلا سفك الدماء. [1]

ثم حملوا عليهم أيضا في أوائل رمضان في البرج الصغير فغلقوا الأبواب، وقاتلوهم من النوافذ التي فيه، والطلبة يدخلون بنادقهم منها ويطلقون البارود، فكان ذلك اليوم من أيام البلاء والابتلاء عليهم، مات منهم 16، وجرح منهم كثير، كل هذا وهم مشتغلون بقراءة القرآن والفقه والنحو، لا يتركون إلا في أوقات القتال، وبالليل يبيتون يتلون القرآن الكريم لا يفترون إلا نحو الساعتين من أوقات النوم، ومتى انتبه النائم وجدهم على حالهم تلك، وسمعت التلاوة من كل جهة من ذلك الوادي، فكانوا كما قيل في السلف الصالح رهبانا في الليل فرسانا في النهار، وقيل أن السيد محمد بن علي أبا طالب لما رأى خوفهم من المدافع، ضمن لهم أن لا أحد يموت بمدفع! [2] وظل أولئك الطلبة يلازمون ذلك الجبل يراقبون النصارى، فمتى خرجت طائفة منهم لجهتهم بادروا إليها، وتركوهم بين قتيل وجريح أو فار بنفسه، لا فرق بين كافر أو منافق انحاز إليهم ولا بين من خرج يبغي حاجة لنفسه أو خرج لقتالهم. [3]

1- ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 248.
2- نفسه، صص 248-249.
3- نفسه، ص250.

ثم إن الإسبان طلبوا من الباشا محمد بن عثمان هدنة لمدة شهر فأجابهم لذلك شهر شعبان، ورغم ذلك نجد أن 500 من الطلبة يجتمعون ويتوجهون إلى أبراج العدو، فهابهم هؤلاء وعرضوا عليهم الطعام، فرفض الطلبة وأجابوهم أن الأمير قد كفاهم طعام غيره، وخزن عندهم من البارود والرصاص ما يكفيهم للقتال سنين عديدة، ولما علم الأمير بذلك عاتب الطلبة ونهاهم لكي لا ينسب المسلمون إلى الغدر. وفي الثالث من رمضان نقض الإسبان وعودهم للباي، فهرع نحو من 40 طالبا وهجموا على الكفار في برج الوادي فقتلوا منهم ثمانية وعادوا سالمين. [1]

أما الباي فقد خرج بجيشه يريد فتح مدينة وهران وبعث إلى البلدان البعيدة فأتي بجميع أعلام أوليائها الأكابر كالسيد عبد الرحمن الثعالبي والسيد أبي مدين والسيد أحمد بن يوسف والسيد محمد بن عودة ومقامات شيخ الحضرة السيد عبد القادر الجيلي وغيرهم ليحضر بها القتال تبركا بها، وذهب لزيارة الطلبة في الجبل فدفع لهم أرزاقهم وبعث لكل مدرس منهم ب خمسة سلاطين، ثم بعث إلى الطلبة فقدموا عليه في تعبئة حسنة وأبهة جميلة فانتخب منهم 500 بايعوه على الموت، فكسى كل واحد منهم كسوة جيدة وأعطاهم دراهم وأمرهم بملازمة الوادي لحفر خنادق موصلة إلى أبراج الإسبان لتلغيمها، ورجع الباقون إلى يفري كما كانوا . [2]وأمر جميع أبناء الصالحين والطلبة الذين لم يندرجوا في ديوان إخوانهم التخييم بموضع يعرف بالشفة ويحرسون بناحية البرج الأحمر . [3]

1- ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، صص274-277.
2- المصدر نفسه، صص 284-285.
3- نفسه، ص 299.

وبعد وفاة الباشا محمد بن عثمان خلفه الداي حسن، فأمر الباي بمواصلة الجهاد لكن المدينة استعصت عليه، ولم يعد يعول إلا على المدافع، فأمر العلماء بقراءة صحيح البخاري بالمحلة المنصورة لدفع الشدائد وتفريج الكرب، وبنى لهم أخبية لذلك يتلونه بالتناوب صباح مساء فختموه في عشرة أيام [1]، وبدأت قلاع وأبراج وهران تتهاوى الواحدة تلو الأخرى- نتيجة القصف المدفعي المتواصل، مع ضعف الجانب الإسباني وقلة مؤنهم، وتكاليف الحرب الباهضة- مثل مرجاجو وبرج العيون، وسقط العديد من القتلى في صفوف الإسبان في حدود229، وبدأ الجنود الإسبان يفرون من مراكزهم رغم المساعدة الإسبانية لهم في حدود 700 مقاتل. [2]

ثم أن الإسبان طلبوا هدنة جديدة من الباي حسن هدنة لمدة شهر فأجابهم لذلك، وقد ساهمت تكبيرات وتهليلات شيوخ الزوايا والمرابطين في تحفيز جيوش الباي في مواصلة الجهاد وتشجيعهم على الصمود حتى النصر أو الشهادة، وأمام هذا الوضع رضخ الإسبان إلى الصلح مع الباي محمد بن عثمان وفق شروطه وتوقيع اتفاقية انسحاب من المدينة وذلك بحضور الداي حسين باشا الجزائر في مطلع شهر محرم 1207 ه والتي تضمنت عدة بنود. [3]منها:

1- تنسحب اسبانيا من وهران والمرسى الكبير دون قيد أو شرط .

2- تدفع اسبانيا لخزينة الجزائر سنويا مقدار 120 ألف فرنك.

3- ترجع اسبانيا للجزائر كل القنابل والمدافع والذخيرة التي غنمتها عند استرجاعها لوهران والمرسى الكبير .

1- ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق ، ص 301.

2- ابن العيفاوي علي، مرجع سابق، صص 263-264.

3- ابن العيفاوي، مرجع سابق، ص 265.

4-تحمل سفينة اسبانية بصفة رسمية إلى استانبول مفتاحين ذهبيين رمز لاستسلام وهران والمرسى، مع جرتين من ماء وهران. [1]وتقبل الجزائر مقابل ذلك:

1- أن يكون لإسبانيا مركز تجاري في الغزوات.

2- وأن تبتاع من الجزائر 3000 كيلة من القمح سنويا

3- وأن تباشر صيد المرجان على الساحل الغربي الجزائري، ثم ابتدأ انسحاب الإسبان من وهران يوم 17 ديسمبر 1791م، وتم الانسحاب نهائيا، بعد ترك الأسلحة والعتاد المتفق عليه وتسليم المدينة للباي، الذي دخلها على رأس المجاهدين الجزائريين دخول الفاتح المنتصر، يوم 24 فيفري1792م، وكان أول عمل قام به بعد تحرير المدينة بناؤه للمسجد الكبير، مسجد الباشا من ماله الخاص، شكرا لله على تتويج الجهاد الطويل بالفتح المبين. [2]

خاتمة:

من خلال ما سبق ذكره يتبين لنا الدور الهام والبارز الذي لعبه العلماء، وطلبة العلم خاصة في الحث على الجهاد والتعبئة العامة، بل حتى المشاركة في القتال والاستشهاد في سبيل الله ثم في سبيل تحرير الوطن من المحتل الصليبي، إضافة إلى رفع معنويات الجيش النظامي المقاتل في سبيل الله.

وعلينا أن لا نغفل عن أن هؤلاء المجاهدين من العلماء و الطلبة كانوا من المتطوعين للقتال، هدفهم تحرير الوطن، فالانتصار أو الشهادة في سبيل الله، وذلك أغلى مناهم. [3]

1- أحمد توفيق المدني، مصدر سابق، ص526.

2- أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، صص 526-527.

إن فتح وهران الثاني والنهائي من يد الإسبان كان بفضل حسن سيرة الباي محمد بن عثمان، فقد كان رجلا متدينا، يقرب العلماء ويحترمهم، ويشجع على التعليم ويرغب في طلب العلم، وهو ما أدى إلى التفاف الجماهير حوله، من أجل وحدة الصف والكلمة، وهو ما توج بالنصر المؤزر.

قائمة المصادر والمراجع:

1- المصادر :

1- ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف : شرح صحيح البخاري.تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، السعودية، الرياض، مكتبة الرشد ، ط2، 1423هـ ، 2003م، ج5.

2- ابن سحنون الراشدي أحمد:الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني.تحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ، ط1، 2013.

3- ابن رشد القرطبي أبو الوليد محمد بن أحمد: المقدمات الممهدات، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1408 ه، 1988م، ج1.

4- الزياني محمد بن يوسف:دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران .تحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ، ط1، 2013م.

5- ابن أبي زيد القيرواني المالكي عبد الله :متن الرسالة.بيروت، دار الفكر.

6- أبي راس الناصري محمد بن أحمد:عجائب الأسفار ولطائف الأخبار .تحقيق محمد غالم، دون معلومات حول الطبع، ج2.

7- أبي راس الناصري الجزائري :فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته . تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990م .

8- مالك بن أنس:الموطأ.تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، الإمارات، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية ، 1425 ه، 2004م، ج5.

9-المزاري الأغا بن عودة: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى نهاية القرن التاسع عشر. تحقيق يحي بوعزيز، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج1

10 - ابن هطال أحمد التلمساني:رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري.تحقيق محمد بن عبد الكريم، ، دار عالم الكتب ، ، ط1، 1969.

11- الوزان الفاسي الحسن بن محمد:وصف إفريقيا.ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت ، ، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983م ، ج2.

المراجع

1- الأعرج الغريسي الفاسي محمد:شرخ منظومة بغية الطالب لعيسى بن موسى الغريسي التيجاني.ضمن كتاب مجموع النسب والحسب للهاشمي بن بكار. تلمسان، المطبعة الخلدونية، ط1 ، 1961م، .

2- بن بكار الهاشمي:حاشية رياض النزهة على منظومة نسمات رياح الجنة، في فضائل أهل البيت وأولياء الله ، وأذكار الكتاب والسنة ضمن كتاب مجموع النسب واحسب والفضائل والتاريخ والأدب. ، تلمسان، مطبعة ابن خلدون، ط1، 1961.

3- بن بكار الهاشمي: القول الأعم في بيان قبائل الحشم. ضمن كتاب مجموع النسب والحسب للهاشمي بن بكار. ، تلمسان، المطبعة الخلدونية، ط1، 1961م.

4- البوعبدلي المهدي ، الحياة الثقافية في الجزائر، ضمن الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، جمع وإعداد عبد الرحمن دويب، الجزائر، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، المجلد الثالث.

5-بوعزيز يحي: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة. ، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1995م، ج2.

6- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي. بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1989م، ج1.

7- سعيدوني ناصر الدين والمهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ العهد العثماني.الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1984م.

8- المدني أحمد توفيق:حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر واسبانيا ، 1492-1792، الجزائر، المؤسسة الوطنيةللكتاب، ط3، 1984م.

المجلات:

ابن العيفاوي علي:البعد الروحي في فتح مدينة وهران سنة 1792م.الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، الجزائر، العددان 5، 6.جوان2014-2015.